بسم الله الرحمن الرحيم

انقلاب المفاهيم
دراسة علي ضوء نهج البلاغة

السيد هاشم الميلاني

ايران ـ قم

تهيد:

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: «فطرة الله التي فطرالناس عليها» [الروم: ٣٠]

فالانسان يولد على الفطرة السليمة، و انّما ابواه يمجسانه او يهوّد انه . كما ورد في الحديث الشريف . كناية عن دور البيئة و المجتمع و الاسرة في صناعة شخصية الانسان و تكوين منظومته الفكرية و المعرفية.

و قال تعالى أيضا: «قل كل يعمل على شاكلته» [الاسراء: ٨٤] ممّا يعني انّ مدار العمل . بمعناه الواسع ليشمل عمل الجوارح و الجوانح معاً . هوشاكلة الانسان أي المنظومة الفكرية و المعرفية التي يكتسبها الانسان بطرق مختلفة و يعتمد عليها في مجال عمله، فهذه الشاكلة هي التي تحدّد مسار الانسان من هداية أو ضلال، تقدّم أو تأخرّ، سعادة أو شقاء، و ذلك انّ من كانت شاكلته مبتنية و منبعثة من الفطرة السليمة الالهية كان مهتدياً و على خير، و من بنى شاكلته على الأهواء و الميول الباطلة، ابتعدت شكالتة شيئاً فشيئاً عن تلك الفطرة، و أصبح منكوس القلب بتبع تغيير المفاهيم عنده أو قل انقلابها، و ذلك انّ «من سلك الطريق الواضح ورد الماء، و من خالف وقع في التيه» [الخطبة: ٢٠١]

و في تمثيل جميل يقول اميرالمؤمنين : «فاعلم انّ لكل عمل نباتاً، و كل نبات لاغنى به عن الماء، و المياه مختلفة، فماطاب سقيه طاب غرسه و حلت ثمرته، و ما خبث سقيه خبث غرسه و أمرّت ثمرته» [الخطبة: ١٥٤] و هذا تمثيل

لطيف عن طريقة تكوين شاكلة الانسان، فالروافد المعرفية اذا كانت نظيفة و سليمة أنتجت سلامة الموقف و صحته، أما لو كانت خبيثة لم تنتج سوى الموقف السلبي و الانقلاب على الظواهر و الثوابت.

لو رجعنا الى التاريخ و درسنا مواطن النجاح أو الانهيار و الفشل بدقّة، لرأينا انّ السبب الرئيس هو المفاهيم التي اعتمد عليها الناس لذلك و بتبعها نجحوا أو فشلوا.

و هناك نص عند اميرالمؤمنين(ع) يشير الى انّ الهدف الأساسي من ارسال الرسل و بعثة الانبياء انّما كان لتقويم و تصحيح المفاهيم بعد اندراسها، قال(ع): «واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، و على تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدّل أكثر خلقه عهدالله اليهم، فجهلوا حقه، و اتخذوا الانداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث الله فيهم رسله، و واتر اليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكروهم منسيّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول ...» [الخطبة ١٠].

فالتذكير بميثاق الفطرة، و بالنعم المنسية، و إثارة دفائن العقول، عبارة اخرى عن تقويم المفاهيم و تصحيحها و تكوين شاكلة فكرية جديدة تأخذ بيدالانسان نحو الحق و الفضيلة.

نحن اليوم إذ نعيش المعترك الثقافي في عصر تعدّد القراءات و الرؤى الفكرية المختلفة مع ما نحمله من رسالة خالدة تهدف الى نيل السعادة في الدارين، و ما نشاهده من أزمات يعيشها العالم الاسلامي، يلزم علينا الاهتمام بشأن المفاهيم و معرفة مواقع الخلل و الآفة، لنتمكن من أن نرسم شاكلة المجتمع على أساس مفاهيم صحيحة مستقاة من القرآن و العترة، ليصلح بها الفرد و المجتمع.

انّ أعداء الاسلام بعد ما فشلوا في إطفاء نور الاسلام، عمدوا الى تغيير هوية المسلمين و افراغ المفاهيم الايجابية من محتواها بحجّة التقدّم و التطور و الحضارة، فهناك اسلام و دين لكنه فارغ، و كما قال أمير المؤمنين(ع): «و لبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً».

نحن هنا و لمعالجة هذه الظاهرة أي ظاهرة انقلاب المفاهيم و معرفة أسبابها، نتصفّح كلام أميرالمؤمنين(ع) الوارد في نهج البلاغة، لنقف على ماورد في كلامه الشريف من معالجات و حلول لهذه الظاهرة، إذ كان هو عليه السلام مبتلى بهذه الظاهرة. و نحاول أن نوجز الكلام في ثلاثة محاور.

المحور الأوّل: الأسباب

الانحراف عن الفطرة الالهية و بتبعه انقلاب المفاهيم و اختلاط الأوراق، له أسباب و عوامل عدّة يتخذها الانسان و يتمسك بها عن عمد أو جهل، الى أن يصبح منكوساً يرى الحق باطلاً و الباطل حقاً.

و فيما يلي نشير الى أهم الاسباب النفسية و الاجتماعية كما ورد في نهج البلاغة:

١. إغواء الشيطان:

يشير أميرالمؤمنين(ع) فيه نص جميل الى خطورة اغواء الشيطان و طريقة عمله الماكرة و يقول: «انّ الشيطان يسنّي لكم طرقه، و يريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة، و يعطيكم بالجماعة الفرقة، و بالفرقة الفتنة...» [الخطبة ١٢٠]

فالشيطان يتقدّم خطوة خطوة الى أن يصل الى مراده، و هو العبث في المنظومة الفكرية و المعرفية للانسان حتى يقلبها، و بتبعها تتغير طريقة التفكر و السلوك، كما قال(ع): «و يعطيكم بالجماعة الفرقة...»

و يقول(ع) في مكان آخر: «اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، و اتخذهم له أشراكاً، فباض و فرّخ في صدورهم، و دبّ و درج في حجورهم، فنظر بأعينهم، و

نطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، و زيّن لهم الخطل، فعل من شركه الشيطان في سلطانه، و نطق بالباطل على لسانه» [الخطبة ٧]

و قال(ع): «و حذّركم عدّواً نفذ في الصدور خفياً، و نفث في الآذان نجيّاً، فأضل و أردى و وعد فمنّى، و زين سيئات الجرائم، و هوّن موبقات العظائم» [الخطبة: ٨٢]

إذاً من الاسباب الرئيسية في عملية استحالة المفاهيم و انقلابها، متابعة الشيطان و اغوائه بحيث تنقلب جميع الموازين فتصبح شيطانية بعد أن كانت رحمانية.

٢. هوى النفس:

قال أميرالمؤمنين في كتابه الى الامام الحسن: «الهوى شريك العمى» [الكتاب ٣١]

بمعنى انّ صاحب الهوى أعمى عن الحق و عن المنهج القويم لانّه لايراه كما هو، و لذا كان أميرالمؤمنين(ع) يتخوّف من اتباع الهوى و يقول: «أيها الناس انّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، و طول الأمل. فأمّا اتباع الهوى فيصد عن الحق، و أما طول الأمل فينسي الآخرة».

فالصدّ عن الحق عبارة ثانية لانقلاب المفاهيم و الموازين عند الانسان، و بتبعه يحصل الشقاء، فانّ «الشقي من انخدع لهواه و غروره» [الخطبة: ٨٥]

و لذا كان(ع) ينصح معاوية و يقول له: «فنفسك نفسك، فقد بين الله لك سبيلك، ... و انّ نفسك قد أوحلتك شرّاً، و أقحمتك غياً، و أوردتك المهالك، و أوعرت عليك المسالك» [الكتاب ٣٠]

٣. حب الدنيا:

انّ حب الدنيا من أهم أسباب انحراف الانسان و انقلاب مفاهيمه شيئاً فشيئاً رغم وضوح البينات و اتمام الحجة.

قال(ع): «أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها، و اصطلحوا على حبها، و من عشق شيئاً أعشى بصره و أمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، و يسمع باذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله، و أماتت الدنيا قلبه، و ولهت عليها نفسه، فهو عبد لها و لمن في يديه شيء منها حيثما زالت زال اليها، و حيثما أقبلت أقبل عليها» [الخطبة: ١٠٨]

و بهذا الصدد يشير(ع) الى انّ السبب في انحراف البغاة و الخارجين عليه انمّا هو حب الدنيا، و يقول: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، و مرقت اخرى، و فسق آخرون، كأنّهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض و لا فساداً و العاقبة للمتقين» بلى و الله لقد سمعوها و وعوها، و لكنّهم حليت الدنيا في أعينهم و راقهم زبرجها» [الخطبة: ٣]

و قال(ع) في مكان آخر في ذم الدنيا و المتها لكون عليها، «قد تصافيتم على رفض الآجل و حب العاجل، و صار دين أحدكم لعقة على لسانه» [الخطبة: ١١٢] أي انّ الظاهر هو الدين و الالتزام بالشعائر و المناسك و لكن الواقع شيء الآخر يخالف هذا الظاهر الفارغ، لم يكن هناك سوى اصطلاحات و مفاهيم مقلوبة عن واقعها ليس لها أي أثر عملي.

و قال مؤكداً لهذا المعنى ايضا: «و لكنكم نسيتم ما ذُكرتم و أمنتم ماحذّرتم، فتاه عنكم رأيكم، و تشتّت عليكم أمركم» [الخطبة: ١١٥]

و هكذا يتقدّم الانسان الى أن يخرج من طاعة الله تعالى . رغم تمسكه بالظواهر و المناسك . ليدخل في طاعة الدنيا: «و كذلك من عظمت الدنيا في عينه، و كبر موقعها من قلبه، آثرها على الله، فانقطع اليها و صار عبداً لها» [الخطبة: ١٦٠]

فمفهوم العبودية مع ما له من معنى شريف، يصبح فارغاً و مقلوباً ليمثّل عبودية الدنيا و الهوى و الشيطان.

لذا كان أميرالمؤمنين(ع) يحذّر دوماً من هذا المزلق الخطير و يدعو الى استقامة المفاهيم و يقول: «و سابقوا فيها الى الدار التي دعيتم اليها، و انصرفوا بقلوبكم عنها، و لا يخنّ أحدكم خنين الأمة على ما زوي عنه منها» [الخطبة: ١٧٣]

٤. الفتن و الشبهات و البدع

و من العوامل المهمة أيضاً لانقلاب المفاهيم و استحالتها، وقوع الفتن و الشبهات، قال(ع): «و الذي بعثه بالحق لتبلبلنّ بلبلة، و لتغربلن غربلة، و لتساطنّ سوط القدر، حتى يعود أسفلكم أعلاكم، و أعلاكم أسفلكم، و ليسبقنّ سابقون كانو قصّروا، و ليقصّرن سباقون كانوا سبقوا» [الخطبة ١٦]

و قال(ع) ايضاً: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، و القاصمة الزحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، و تضلّ رجال بعد سلامة، و تختلف الأهواء عند هجومها، و تلتبس الأراء عند نجومها... قد اضطرب معقود الحبل، و عمي وجه الأمر، تغيض فيها الحكمة، و تنطق فيها الظلمة .... و تثلم منار الدين، و تنقض عقد اليقين.... و يفارق عليها الاسلام» [الخطبة: ١٥١]

و يقول(ع) في بداية وقوع الفتن و اسبابها: «انمّا بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله، و يتولى عليها رجال رجالاً، على غير دين الله، فلو انّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، و لو انّ الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، و لكن يؤخذ من هذا ضغث، و من هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، و ينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى» [الخطبة: ٥٠]

و كذلك الشبهة فانّها كما قال(ع): «انمّا سمّيت الشبهة شبهة لانّها تشبه الحق، فأمّا أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، و دليلهم سمت الهدى، و أما أعداء الله فدعاؤهم الضلال، و دليلهم العمى» [الخطبة: ٣٨]

و في كتابه(ع) لمعاوية: «فاحذر الشبهة و اشتمالها على لبستها، فانّ الفتنة طالما أغدقت جلابيبها، و أعشت الأبصار ظلمتها» [الكتاب: ٦٠]

فالشبهة اذاً و الفتنة تسببان خلط الأوراق و العمى و الوقوع في التيه، و عدم القدرة على تشخيص الحق من الباطل، و بعبارة اخرى انقلاب المفاهيم.

و للبدع أيضا، قسط وافر في هذا المجال، حيث قال(ع): «ما احدثت بدعة الاّ ترك بها سنة، فاتقوا البدع و ألزموا المهيع» [الخطبة: ١٤٥] و قال(ع): «انّ المبتدعات المشبهات هي المهلكات» [الخطبة: ١٦٩].

٥. اختلاط المفاهيم و الزيغ:

انّ الانسان التي تختلط عليه المفاهيم بسبب الفتن و الاهواء و الشيطان، يزيغ و تختلط عليه المفاهيم و لا يتمكن من تشخيص الحق عن الباطل، و بتبعه تنقلب عليه المفاهيم و يضل، كما قال(ع): «فلو انّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، و لو انّ الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين» [الخطبة: ٥٠] و قال(ع): «من زاغ ساءت عنده الحسنة، و حسنت عنده السيئة، و سكرسكر الضلالة» [قصار الحكم: ٢٧]

و هذا هو حال مجموعة تركت أميرالمؤمنين(ع) و لم تنصره أيام البغاة، نتيجة الزيغ و اختلاط الاوراق عندهم، حتى جاء احدهم . و هو الحارث بن حوط . الى أميرالمؤمنين(ع) و قال له: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة فقال(ع): يا حار انّك نظرت تحتك و لم تنظر فوقك فحرت، انّك لم تعرف الحق فتعرف من أباه، و لم تعرف الباطل فتعرف من أتاه» [قصار الحكم: ٢٥٣]

٦. الحكومات المنحرفة:

للحكومة و الحاكم دور مهم في استقامة الناس أو ضلالهم إذ كما قال أميرالمؤمنين(ع): «اذا تغير السلطان تغير الزمان» [الكتاب: ٣١] و قال(ع): «و انمّا الناس مع الملوك و الدنيا الاّ من عصم الله» [الخطبة: ٢١٠] .

و ذلك انّ الحكومة بما تمتلك من قوّة و مال و وسائل الاعلام بامكانها صناعة عقول الناس كيف ما شاءت، فاذا كانت صالحة فانّها ستسوق الناس نحو الصلاح، و بخلافه لو كانت فاسدة، إذ انّها تخلط الأوراق و تقلب المفاهيم و تغير المنظومة الفكرية و المعرفية لدى الانسان و قال(ع): «انّ شر الناس عندالله امام جائر ضَلّ و ضُلّ به، فأمات سنة مأخوذة، و أحيا بدعة متروكة» [الخطبة: ١٦٤]

و هذا هو الهاجس المهم عند الأنبياء و الأولياء من تولّي الظالمين لدفة الحكم، قال(ع) بالنسبة الى موسى(ع)، «لم يوجس موسى خيفة على نفسه، أشفق من غلبة الجهّال و دول الضلال» [الخطبة: ٤]

و كان يقول(ع)في توجسه من غلبة بني امية: «ألا و انّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني امية، فانّها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها، و خصت بليتها» [الخطبة: ٩٢]

و قال(ع)فيها أيضاً: «و الله لا يزالون حتى لايدعوالله محرّماً الاّ استحلّوه، و لا عقداً الاّ حلّوه، ... و حتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه، و باك يبكي لدنياه...» [الخطبة: ٩٧]

و قال(ع) في سبب كثرة توبيخه و استنهاضه المسلمين: «و لكنني آسى أن يلي أمر هذه الامة سفهاؤها و فجارها... فولا ذلك لما أكثرت تأليبكم و جمعكم و تحريضكم، و لتركتكم إذ أبيتم و ونيتم» [الكتاب: ٦٢]

فهو(ع) يعلم بخطورة الموقف، و ما يعمله الحاكم المنحرف من اللعب بعقول الناس و استحالة مفاهيمهم و معارفهم، و لذا يعرّض بالحكومات التي سبقته و يقول: «فمني الناس. لعمر الله. بخبط و شماس و تلوّن و اعتراض» [الخطبة: ٣] و عند ما هجم عليه المسلمون ليبايعوه بعد مقتل عثمان قال: «دعوني و التمسوا غيري، فانّا مستقبلون أمراً له وجوه و ألوان، لا تقوم له القلوب و لا تثبت عليه العقول، و انّ الآفاق قد أغامت، و المحجة قد تنكرت» [الخطبة ٩١]

فنحن نتساءل: لماذا لاتقوم القلوب و لا تثبت العقول لما يريد أن يصنعه أميرالمؤمنين(ع) هل هو يريد أن يغير الدين و الشريعة حتى لا تستقيم له الناس؟! ام

انّ هناك شيء آخر، و هو التلاعب الذي حصل جرّاء حكم السابقين بالمنظومة الفكرية و المعرفية لدى المسلمين بحيث انقلبت المفاهيم الصحيحة الى ضدّها و لا يستطيع عدل القرآن أن يغيرها إذ انّ الآفاق قد أغامت و المحجة تنكرت، و الافاق هي آفاق عقول الناس أغامتها الشبهة و الفتنة فانقلبت رأساً على عقب.

و قال(ع) أيضا: «و كانت امور الله عليكم ترد و عنكم تصدر، و اليكم ترجع، فمكنّتم الظلمة من منزلتكم، و ألقيتم اليهم أزمتكم، و أسلمتم امور الله في أيديهم يعملون بالشبهات، و يسيرون في الشهوات» [الخطبة: ١٠٥]

و لذا قام(ع) بعملية اصلاحية كبرى لتقويم المفاهيم و ارجاعها الى نصابها الأول و قال لهم: «فان أطعتموني فانّي حاملكم إن شاء الله على سبيل الجنة، و إن كان ذامشقة شديدة و مذاقة مريرة» [الخطبة: ١٥٦]

و كان يقول(ع): «اللهم انّك تعلم انّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، و لا التماس شيء من فضول الحطام، و لكن لنرد المعالم من دينك و نظهر الاصلاح في بلادك» [الخطبة: ١٣١]

و قال(ع): «و ما أردت الاّ الاصلاح ما استطعت و ما توفيقي الاّ بالله عليه توكلت» [الكتاب: ٢٨]

و هناك نموذج آخر يذكره أميرالمؤمنين(ع) لدور الحكومة المنحرفة في انقلاب المفاهيم، و هي حكومة معاوية، قال(ع): «ألا انّ معاوية قاد لمّة من الغواة و عمّس

عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية» [الخطبة: ٥١] و قال(ع) في أهل الشام و جهلهم و مدى استحالة المفاهيم عندهم بسبب تضليل معاوية: «و أقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية و مؤدّبهم ابن النابغة» [الخطبة: ١٨٠]

٧. علماء السوء:

لعلماء السوء دور بالغ الأهمية في استحالة المفاهيم عند الناس، إذ انّ الانسان بحسب فطرته يرجع فيما لا علم له الى من يعلم، فالناس بالنسبة الى امور دينهم يرجعون الى العلماء ليأخذوا منهم معالم دينهم، فلوكان العالم منحرفاً، لم تنتج هذه المراجعة سوى الانحراف و الضلال.

قال أميرالمؤمنين(ع) في دور علماء السوء من أهل الشام أيام معاوية: «و ألّب عالمكم جاهلكم» [الكتاب: ٥٥]

و قال(ع): في علماء السوء عموماً: «انّ أبغض الخلائق الى الله تعالى رجلان: رجل وكله الله الى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة و دعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته و بعد وفاته...» [الخطبة: ١٧]

و قال(ع) أيضا: «و آخر قدتسمّى عالماً و ليس به، فاقتبس جهائل من جهّال، و أضاليل من ضلاّل، و نصب للناس أشراكاً من حبال غرور، و قول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، و عطف الحق على أهوائه، يؤمّن من العظائم و يهوّن من

الجرائم، يقول: أقف عند الشبهات و فيها وقع، و يقول: أعتزال البدع و بينها اضطجع، فالصورة صورة انسان و القلب قلب حيوان، لايعرف باب الهدى فيتبعه، و لاباب العمى فيصدّ عنه، فذلك ميت الأحياء» [الخطبة: ٨٦]

و قال(ع): «رجل منافق مظهر للايمان، متصنع بالاسلام، لايتأثّمّ و لا يتحرّج، يكذب على رسول الله متعمداً، فلوعلم الناس انّه منافق كاذب لم يقبلوا منه و لم يصدّقوا قوله». [الخطبة: ٢١٠]

المحور الثاني: المصاديق

الأسباب التي مرّت في المحور الأول، هي أهم الأسباب في تكوين منظومة فكرية و معرفية منكوسة و مفاهيم مقلوبة، و نتيجة لهذه المظاهر تتولّد مصاديق و تظهر على أرض الواقع. و فيما يلي نشير الى أهم هذه النتائج و تلك المصاديق المتولّدة من انقلاب المفاهيم و استحالتها.

١. الانسان المنكوس:

قال(ع) في وصف علماء السوء: «فالصورة صورة انسان و القلب قلب حيوان» [الخطبة ٧٨]

و قال(ع): «فمن لم يعرف بقلبه معروفاً، و لم ينكر منكراً، قلب فجعل أعلاه أسفله و أسفله أعلاه» [قصار الحكم: ٣٦٥]

و قال(ع): «و ازدحموا على الحطام، و تشاحّوا على الحرام، و رفع لهم علم الجنة و النار، فصرفوا عن الجنة وجوههم، و أقبلوا الى النار بأعمالهم، دعاهم ربهم فنفروا و ولّوا، و دعاهم الشيطان فاستجابوا و أقبلوا» [الخطبة: ١٤٤]

و قال(ع): «فاجتمع القوم على الفرقة، و افترقوا عن الجماعة، كأنّهم أئمة الكتاب و ليس الكتاب امامهم، فلم يبق عندهم منه الاّ اسمه، و لا يعرفون الاّ خطه و زبره» [الخطبة: ١٤٧]

و قال(ع): «قد خاضوا بحار الفتن، و أخذوا بالبدع دون السنن» [الخطبة: ١٠٤]

و قال(ع): «مالي أراكم عن الله ذاهبين و الى غيره راغبين» [الخطبة: ١٧٥]

و قال(ع): «انّ الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظّهم فمالوا مع الدنيا و نطقوا بالهوى» [الكتاب: ٧٨]

٢. الاسلام الممسوخ:

قال(ع): «أيها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بما فيه» [الخطبة: ١٠٢]

و قال(ع): «قد تصافيتم على رفض الآجل و حب العاجل، و صار دين أحدكم لعقة على لسانه» [الخطبة ١١٢]

و قال(ع): «و اعلموا انكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، و بعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلّقون من الاسلام الاّ باسمه، و لاتعرفون من الايمان الاّ رسمه، تقولون النار و لا العار، كأنّكم تريدون أن تكفئوا الاسلام على وجهه، انتهاكاً لحريمه و نقضاً لميثاقه...» [الخطبة: ١٩٢]

و قال(ع): «و تواخى الناس على الفجور، و تهاجروا على الدين.... و لبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً» [الخطبة: ١٠٨]

٣. الضلال الاجتماعي:

قال(ع): «أيها الناس، انّا قد أصبحنا في دهر عنود و زمن شديد، يعدّ فيه المحسن مسيئاً و يزداد الظالم فيه عتوا، لا ننتفع بما علمنا و لانسأل عمّا جهلنا، و لانتخوّف قارعة حتى تحلّ بنا» [الخطبة: ٣٢]

و قال(ع): «و لقد أصبحنا في زمان اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، و نسبهم أهل الجهل فيه الى حسن الحيلة» [الخطبة: ٤١]

و قال(ع): «وتواخى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق، فاذا كان ذلك... كان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكالاً، وفقراؤه امواتاً، وغار الصدق، وفاض الكذب، واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسباً، والعفاف عجبا» [الخطبة: ١٠٧].

و قال(ع): «فيا عجباً و ما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لايقتصون أثر نبي، و لا يقتدون بعمل وصي، و لا يؤمنون بغيب، ولا يعفّون عن عيب، يعملون في الشبهات، و يسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، و المنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات الى أنفسهم، و تعويلهم في المبهات على آرائهم...» [الخطبة: ٨٧]

و قال(ع): «ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح، و أرواحاً بلا أشباح، و نساكاً بلا صلاح، و تجاراً بلا أرباح، ايقاظاً نوّماً، و شهودا غيباً، و ناظرة عمياً، و سامعة صمّاً، و ناطقة بكماً» [الخطبة: ١٠٧]

و قال(ع): «و اعلموا رحمكم الله انكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، و اللسان عن الصدق كليل، و اللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الادهان، فتاهم عارم، و شائبهم آثم، و عالمهم منافق، و قارئهم مماذق» [الخطبة: ٢٣٢]

و قال(ع): «يأتي على الناس زمان لايقرّب فيه الاّ الماحل، و لا يظّرف فيه الاّ الفاجر و لا يضعّف فيه الاّ المنصف، يعدّون الصدقة فيه غرماً، و صلة الرحم منّاً، و العبادة استطالة على الناس» [قصار الحكم: ٩٦].

٤. نبذ القرآن و تعاليمه:

قال(ع): «انّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق و لا أظهر من الباطل، و لا أكثر من الكذب على الله و رسوله، و ليس عند اهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، و لا أنفق منه اذا حرّف عن مواضعه... فقد نبذ الكتاب حملته، و تناساه حفظته، فالكتاب يومئذ و أهله منفيان طريدان، و صاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو، فالكتاب و أهله في ذلك الزمان في الناس و ليسا فيهم، و معهم و ليسا معهم...» [الخطبة: ١٤٧]

و قال(ع): «يأتي على الناس زمان لايبقى فيهم من القرآن الا رسمه، و من الاسلام الاّ اسمه، مساجدهم يومئذ عامرة من البنى، خراب من الهدى، سكانها و عمّارها شرّ أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة و اليهم تأوي الخطيئة...» [قصار الحكم: ٣٦١]

٥ . الخوارج:

تعدّ الخوارج من أبرز مصاديق انقلاب المفاهيم و اعوجاجها، و تدلّ على مدى الانحراف الحاصل في المنظومة الفكرية و المعرفية لدى طبقة من الناس اشتهروا بالتمسك بالدين و قراءة القرآن و لم يتجاوز تراقيهم.

و من نماذج استحالة المفاهيم عندهم ما فهموه من قوله تعالى: «لا حكم الاّ لله» حيث فسّروه بنفي الامرة و الحكومة السياسية، و قد ردّ عليهم أميرالمؤمنين(ع) بقوله: «كلمة حق يراد بها باطل، نعم انّه لاحكم الاّ لله، و لكن هؤلاء يقولون لا امرة، فانّه لابد للناس من أمير برّ أو فاجر...» [الخطبة: ٤٠]

و منها أيضا تكفير أميرالمؤمنين(ع) ، و قد ردّ عليهم بقوله: «أصابكم حاصب و لابقي منكم آبر، أبعد ايماني بالله و جهادي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللت اذاً و ما أنا من المهتدين...» [الخطبة: ٥٧].

و منها تكفير اصحاب الذنوب، و قد ردّ عليهم أيضاً بقوله: «و قد علمتم انّ رسول الله رجم الزاني ثم صلى عليه ثم ورّثه أهله، و قتل القاتل و ورّث ميراثه

أهله، و قطع السارق و جلد الزاني غير المحصن ثم قسم عليهما من الفيء و نكحا المسلمات، فأخذهم رسول الله بذنوبهم و أقام حق الله فيهم، و لم يمنعهم سهمهم من الاسلام، و لم يخرج أسماءهم من بين أهله» [الخطبة: ١٢٧]

المحور الثالث: المعالجات

بعد ما عرفنا دور المفاهيم في صناعة المنظومة الفكرية و المعرفية للانسان، و انّ أعمال الانسان و مواقفه كلها تعتمد على هذه المنظومة، و وقفنا على بعض المصاديق و المناذج التي اصيبت بانقلاب المفاهيم في منظومتها المعرفية، يصل الأمر الى معرفة المعالجات لهذا الداء العضال، كما ورد في نهج البلاغه، و هي كالتالي:

١. الدين الالهي المتمثل بالاسلام:

قال(ع): «الحمدلله الذي شرع الاسلام فسهّل شرائعه لمن ورده، و أعزّ أركانه على من غالبه، فجعله أمناً لمن علقه، و سلماً لمن دخله، و برهاناً لمن تكلّم به، و شاهدا لمن خاصم به ، و نوراً لمن استضاء به، و فهماً لمن عقل، و لباً لمن تدبر، و آية لمن توسّم، و تبصرة لمن عزم... فهو أبلج المنهاج، واضح الولائج، مشرف المنار، مشرق الجواد، مضيء المصابيح، كريم المضمار، رفيع الغاية...» [الخطبة: ١٠٥]

فالاسلام الصحيح المعتمد على الفطرة و العقل السليم المأخوذ من ينبوعه الصافي، خير علاج أمام انقلاب المفاهيم.

٢. القرآن:

قال(ع): «انّ القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق، لاتفني عجائبه و لا تنقضي عزائبه، و لا تكشف الشبهات الاّ به» [الخطبة: ١٨]

و قال(ع): «كتاب الله تبصرون به، و تنطقون به، و تسمعون به... » [الخطبة: ١٣٣]

و قال(ع): «أيها الناس انّه من استنصح الله وفّق، و من اتخذ قوله دليلاً هدي للتي هي أقوم» [الخطبة: ١٤٧]

و قال(ع): «انّ الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير و الشر، فخذوا نهج الخير تهتدوا، و اصدفوا عن سمت الشر تقصدوا» [الخطبة: ١٦٧]

و قال(ع): «و اعلموا انّ هذا القرآن هو الناصح الذي لايغش، و الهادي الذي لايضل، و المحدّث الذي لايكذب، و ما جالس هذا القرآن أحد الاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى أو نقصان من عمى... فاستشفوه من أدوائكم و استعينوا به على لأوائكم، فانّ فيه شفاء من اكبر الداء و هو الكفر و النفاق و الغي و الضلال...» [الخطبة: ١٧٦]

و قال(ع): «جعله الله رياً لعطش العلماء، و ربيعاً لقلوب الفقهاء، و محاجّ لطرق الصلحاء، و دواء ليس بعده داء، و نوراً ليس معه ظلمة، و حبلاً وثيقاً عروته... و هدى لمن ائتم به، و عذراً لمن انتحله، و برهاناً لمن تكلّم به، و شاهداً

لمن خاصم به، و فلجاً لمن حاج به.... علماً لمن وعى، و حديثاً لمن روى، و حكماً لمن قضى» [الخطبة: ١٩٩]

و دليلية القرآن و ميزانيته تكون لمن وعاه و أخذه من معادنه و هم العترة الطاهرة عدله و قرينه.

٣. الأنبياء و الرسل:

قال(ع) في سبب ارسال الرسل و بعثة الانبياء: «و اصطفى سبحانه من ولده [اي آدم(ع)] أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، و على تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدّل اكثر خلقه عهد الله اليهم، فجهلوا حقّه، و اتخذوا الانداد معه، و اجتالتهم الشياطين عن معرفته، و اقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله و واتر اليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته و يذكروهم منسيّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول» [الخطبة: ١]

فهذا الكلام صريح في ابراز دور الانبياء لتقويم المفاهيم و صناعة العقول من جديد و تحصينها أمام اغواء الشيطان و النفس.

و قال(ع) في رسول الله: «فهو امام من اتقى، و بصيرة من اهتدى، و سراج لمع ضوؤه، و شهاب سطع نوره، و زند برق لمعه...» [الخطبة: ٩٣]

و قال(ع) فيه أيضاً: طبيب دّوار بطبه، قد أحكم مراهمه، و أحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة اليه، من قلوب عمي، و آذان صمّ، و ألسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة، و مواطن الحيرة...» [الخطبة: ١٠٧]

٤. العترة:

و هم ميزان الحق و عدل القرآن بنص حديث الثقلين، و لو تمسّكت الامة بهم منذ قبض رسول الله ، و التزمت بأوامرهم في الكون معهم و عدم تركهم، لما ضلّت الامة و لكان حال العالم الاسلامي غير هذا الحال، و لكان للاسلام شأن غير هذا الشأن.

قال اميرالمؤمنين(ع) مؤكداً دور العترة في تقويم المفاهيم: «هم موضع سرّه، و لجأ أمره، و عيبة علمه، و موئل حكمه، و كهوف كتبه، و جبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، و أذهب ارتعاد فرائصه... هم أساس الدين، و عماد اليقين، اليهم يفيء الغالي، و بهم يلحق التالي...» [الخطبة: ٢]

و قال(ع): «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، و اتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، و لن يعيدوكم في ردى، فان لبدوا فالبدوا، و إن نهضوا فانهضوا، و لا تسبقوهم فتضلّوا، و لا تتأخّروا عنهم فتهلكوا» [الخطبة: ٩٦]

و قال(ع): «بنا يستعطى الهدى، و بنا يستجلى العمى» [الخطبة: ١٤٤]

و قال(ع): «هم دعائم الاسلام، و ولائج الاعتصام، بهم عاد الحق في نصابه، و انزاح الباطل عن مقامه، و انقطع لسانه عن منبته» [الخطبة ٢٣٧]

و من هذه النصوص الشريفة تظهر اهمية العترة الطاهرة، و دورها في تقويم المفاهيم، فهي بمثابة صمام أمان لمن أراد أن يتمسك بالدين و تعاليم الانبياء و تعاليم القرآن و فهم السنة النبوية، و من دون الرجوع اليهم يقع الانسان في التيه و الضلال، كما قال: «ما إن تمسكتم بهما [اي القرآن و العترة] لن تضلوا بعدي أبداً».

٥. التقوى:

من الموازين التي تنفع الانسان في تقويم المفاهيم، و سلامة منظومته الفكرية، التقوى، فقد قال أميرالمؤمنين(ع): «انّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات، حجزه التقوى عن تقحمّ الشبهات» [الخطبة: ١٦]

و قال(ع): «و اعلموا انّ من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن، و نوراً من الظلم» [الخطبة: ١٨٣]

و قال(ع): «فانّ التقوى في اليوم الحرز و الجُنّة، و في غد الطريق الى الجَنّة، مسلكها واضح، و سالكها رابح» [الخطبة: ١٩١]

و قال(ع): «فانّ تقوى الله دواء داء قلوبكم، و بصر عمى أفئدتكم، و شفاء مرض أجسادكم، و صلاح فساد صدوركم، و طهور دنس أنفسكم، و جلاء عشى أبصاركم، و أمن فزع جأشكم، و ضياء سواد ظلمتكم» [الخطبة: ١٩٨]

٦. العلماء الصادقون:

قال أميرالمؤمنين(ع) في وصفهم: «مصباح ظلمات، كشّاف عشوات، مفتاح مبهمات، دفّاع معضلات، دليل فلوات» [الخطبة: ٨٦]

و قال(ع): «فانهم عيش العلم و موت الجهل» [الخطبة: ١٤٧]

و قال(ع): «و ما برح لله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، و في أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم و كلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع و الأبصار و الأفئدة، يذكرون بأيام الله، و يخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه، و بشّروه بالنجاة، و من أخذ يميناً و شمالاً ذمّوا اليه الطريق و حذّروه من الهلكة، فكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات، و أدلّة تلك الشبهات» [الخطبة: ٢٣١]

و قال(ع) لكميل: «بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلاّ تبطل حجج الله و بيناته... يحفظ الله بهم حججه و بيناته...» [قصار الحكم: ١٣٧]

****

هذه أهم المحاور التي استطعنا أن نستخرجها من نهج البلاغة فيما يخصّ موضوعنا، و هو دراسة ظاهرة انقلاب المفاهيم و استحالتها لدى الانسان و المجتمع، مع ذكر أهم أسبابها، و أبرز مصاديقها، و المعالجات المطروحة الواردة على لسان أميرالمؤمنين(ع).

و آخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيد المرسلين محمد خاتم النبيين و على آله الطيبين الطاهرين.